جمالية التشكيل الفني لزخارف واجهات مدرسة ابن يوسف بمراكش

The Aesthetic of Art Formation in the Decorations of Ibn Yusuf's School Facades

تاريخ الاستلام : 2021/04/18 ؛ **تاريخ القبول :** 2021/07/07

ملخص

نشأت العمارة الإسلامية و فنونها على ضوء تعاليم الإسلام وتطورت عبر عصوره المختلفة، فجاء العصر المريني الذي أظهرت زخارف عمارته المغربية الكثير من خصائص الفن الإسلامي من خلال الكسوات الزخرفية المزينة لواجهاته المعمارية التي تنوعت بين واجهات الصحن (مكان التهوية) وقاعة الصلاة (المحراب). وقد انفردت واجهات مدرسة ابن يوسف بمراكش بتشكيل زخرفي جمالي لمختلف الموضوعات الزخرفية الهندسية والنباتية والكتابية المزينة لأسطحها مما أتاح لعين المشاهد إدراك الواجهة بكل عناصرها التجميلية المضافة فقللت من الثقل المادي للبناء وشغلت الفراغات وحققت تعادلية في الشكل والفراغ على أسطحها.

الكلمات المفتاحية: جمالية؛ تشكيل فني؛ زخارف؛ مدرسة ابن يوسف.

*** سهام مجدوب**

جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله، الجزائر.

Abstract

Islamic architecture and its arts arose in the light of the teachings of Islam and developed through its various eras. In the Marinid era, the decorations of the Moroccan architecture showed many of the characteristics of the Islamic art through the ornamental cladding that embellishes its architectural facades, which vary between the facades of the courtyard (the place of ventilation) and the prayer hall (the mihrab). The facades of Ibn Youssef School in Marrakech were unique in forming aesthetic decorations for the various geometric, botanical and written decorative themes that adorned its surfaces. All this allow the viewer's eye to perceive the facade with all the added decorative elements, thus reducing the material mass of the building, filling the spaces, and achieving equivalence between shapes and spaces on its surfaces.

Keywords: Esthetic; Art formation; Motifs ; Ibn Yusuf School.

Résumé

L'architecture islamique et ses arts sont nés à la lumière des enseignements de l'islam et se sont développés à travers ses différentes époques. Durant l'ère marinide, les décorations de l'architecture marocaine ont montré de nombreuses caractéristiques de l'art islamique à travers le revêtement décoratif embellissant ses façades architecturales qui variaient entre les façades de la cour (le lieu de la ventilation) et de la salle de prière (le mihrab). Les façades de l'école Ibn Youssef de Marrakech étaient uniques dans la formation de la décoration esthétique des différents thèmes décoratifs géométriques, botaniques et écrits qui ornaient leurs surfaces, ce qui permettait à l'œil du spectateur de percevoir les façades avec tous ses éléments ornementaux ajoutés, réduisant ainsi la masse matérielle du bâtiment, occupant les espaces et obtenant l'équivalence entre la forme et l'espace sur ses surfaces.

Mots clés: esthétique; formation artistique; motifs; École Ibn Yusuf.

* Corresponding author, e-mail: sihemmedjedoub@yahoo.fr

© جامعة الاخوة منتوري قسنطينة 1، الجزائر 2021.

مقدمة

تضمن الفن الاسلامي مفردات زخرفية لجميع مسطحات العمارة التي تراوحت بين الجصية، الخشبية والرخامية، إضافة إلى الفسيفسائية (الزليج)، كما تراوحت الزخارف في الواجهة الواحدة بين هندسية ونباتية وكتابية وهذا من خلال حجم الأشكال الهندسية المتباينة وحركة الخطوط ودورانها والعناصر التزيينية المضافة لها مما خلق تضادا بين الأرضيات لإحداث نوع من الظل والنور في اللوحات و تنوعا على السطح ووحدة عامة تربط بين عناصره، واستثمرت بذلك القيم الجمالية بجميع عناصرها.

لنحاول في هذا المقال إبراز الأثر الجمالي الذي لعبته هذه الموضوعات على السطح وما خلفته من تأثير في عين المشاهد وما أراد أن يصل إليه الفنان المريني بإيجاد حلول جمالية لمسطحات وواجهات عمارته من خلال ابتكار طرق جديدة للاستخدام الزخرفي.

أولا: ظهور المدارس في الإسلام:

1- المدرسة المفهوم والمصطلح:

يقول الله سبحانه و تعالى[1]: ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ، وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾. وهكذا نجد أن لفظة المدرسة مشتقة من الدَّرْس والدَّارِسون هم الطلبة [2]. أما من حيث مدلولها المعماري، فهي مؤسسة تضم بيتا للصلاة والدراسة في آن واحد وتعرف باسم (القبة)، وصحنا مكشوفا واسعا، وسُكْنَى للطلبة تتألف من طابق أو طابقين بهما غرف أو حجرات صغيرة، وما يتبعها من مرافق ضرورية أخرى كالمكتبة وغيرها.[3]

2- ظهور المدارس في المشرق:

تعتبر المدرسة من مستحدثات الإسلام إذ لم تكن معروفة قبله كما لم تكن معروفة في الفترة الإسلامية المبكرة. وترتبط أغلب المصادر ظهورها بالقرن 5 هـ/11م، رغم وجود خلاف حول ذلك لكن المقريزي يذكر[4] أن :" المدارس مما حدث في الإسلام ... وإنما حدث عملها بعد المائة الرابعة من سني الهجرة، وأول من حفظ عنه أنه بنى مدرسة في الإسلام أهل نيسابور".

وثمة من يقول أن المدرسة التي شيدها أبو بكر بن فورك المتوفى سنة 406هـ/ 1015م هي أقدم هذه المدارس[5]، تليها المدرسة البيهقية نسبة لصاحبها أبي بكر البيهقي المتوفى سنة 454هـ/1062م[6]. وقد ظهرت أول مدرسة في نيسابور ببلاد فارس في عهد حكم " ألب أرسلان" أي قبل نهاية القرن 4هـ، كما أسست مدارس أخرى أثناء حكم ولده "ملك شاه"[7].

ثم جاء عهد الوزير نظام الملك الذي يعتبر من أهم الشخصيات التي أدت دورا أساسيا في بناء المدارس بخراسان و بغداد مرورا بسوريا ثم مصر ووصولا إلى بلاد المغرب والأندلس، حيث خصصت لتدريس المذهب السني ومواجهة المذهب الشيعي القادم من مصر[8]. عرفت هذه المدارس بالنظامية نسبة إلى منشئها الوزير نظام الملك، وأشهرها تلك التي شيدت في عاصمة الخلافة العباسية ، والمعروفة بنظامية بغداد سنة 457ه[9]، وبدأت تمارس وظيفتها سنة 459هـ. وقد تأثر نظامها وتخطيطها بالأواوين الساسانية التي ظهر تأثيرها على مدارس المشرق الإسلامي خاصة في مرحلة متأخرة.[10]

3- ظهور المدارس في المغرب:

أما بالنسبة للمغرب الإسلامي فقد بنيت المدارس خارج المساجد مستقلة بذاتها، حيث أنشئت أول مدرسة بسبتة سنة 635هـ/ 1237م، بناها الفقيه العالم أبو الحسن علي الغافقي الشاري الأندلسي والتي تعتبر أعجوبة زمانه[11]. ثم جاءت بعدها

مدرسة الشماعين التي أنشأتها الأميرة عطفة زوجة أبي زكريا وأم المستنصر بالله الحفصي بتونس سنة 647ه/ 1246م[12]. أما في المغرب والأندلس فإن سيادة مذهب واحد جعل هذه المدارس بمنأى عن الاختلافات المذهبية والفكرية المثيرة للجدل[13].

بالنسبة لمدارس المغرب فقد اختصت منذ قيامها بنشر العلوم الدينية والشرعية وإحياء المذهب المالكي، فازداد الإقبال على العلم والمعارف واتسع نطاق تشييد المدارس، وهذا ما أشار إليه ابن مرزوق في عهد أبي الحسن المريني[14]. وقد ربطت أغلب الدراسات المهتمة بالموضوع بين ظهور المدرسة كمؤسسة والصراع بين السنة والشيعة إذ استخدمت لتثبيث الفكر السني والحفاظ عليه وتطويره وانتشرت هذه المؤسسات بعد ذلك في بلاد الشام ومصر، ومنها انتقلت إلى إفريقية والمغرب والأندلس[15].

وتوالى بعد ذلك بناء المدارس في المغرب الإسلامي منذ النصف الثاني من القرن 7هـ/13م وتواصل التشييد طيلة القرن 8هـ/14م منها: مدرسة النحاسين (الصفارين) 657– 685هـ /1258 – 1286م، مدرسة الصهريج (721هـ/ 1322م)، مدرسة العطارين: 723هـ/1324م، المدرسة البوعنانية بمكناس 747هـ / 1346م،مدرسة أبي عنان فارس (المتوكلية) 751 - 756هـ/1350- 1355م.

ثانيا: مدرسة ابن يوسف بمراكش: 747هـ /1346م (مخطط -1-)

1- الموقع والتأسيس:

تقع هذه المدرسة بجوار جامع ابن يوسف بمراكش وقد شيدها السلطان أبو حسن بن سعيد المريني في العام (747هـ /1346م) [16]. وتعد تحفة مراكش بعد جامع الكتبية حيث قال عنها الناصري: "ومن وقف على هذه المدرسة وتأمل تنجيدها وتنميقها قد قدر هذا السلطان وعلم عظم همته ومحبته للعلم وأهله[17]". إن عمارتها التي تفوق الوصف وضخامتها وفخامة زخارفها تؤكد كلها على أصالة الفن المغربي[18]، فهي تمتاز عن مدارس عصرها بكبر مساحتها التي تبلغ ضعف مساحة مدرسة العطارين والصهريج. وقد أعيد بناؤها في عهد الدولة السعدية.

2- الوصف المعماري:

تتكون المدرسة من صحن أوسط مكشوف وهو من أكبر صحون المدارس المغربية يحفه من الجانب الجنوبي إيوان القبلة ومن جوانبه الثلاثة الشمالي والشرقي والغربي ثلاث ظلات تحمل جميعها حجرات الخلاوي، ويتوج جميع الوحدات المعمارية المطلة على صحن المدرسة من الأعلى رفرف خشبي. نجد المدخل في الضلع الشمالي الذي يقع في صدر الدركاة.

يقع إيوان القبلة في الجهة الجنوبية من الصحن الداخلي للمدرسة، وهو ذو مساحة مستطيلة غطيت بسقف خشبي، وبصدر جدار القبلة محراب ملئت دخلته وبناياته بزخارف جصية رائعة. ويتصل إيوان القبلة بالصحن عن طريق ثلاث مداخل. المدخل الأوسط وهو الذي يفتح على الصحن مباشرة، أما المدخلان الأخيران فيفتح كل واحد منهما على ظلة من الظلتين الجانبيتين.[19]

ثالثا: جمالية التشكيل الزخرفي لواجهات المدرسة:

1- وصف الواجهة الجنوبية للصحن: (شكل -1-)

تعد واجهة صحن مدرسة أبن يوسف الواجهة المقابلة لمدخل المدرسة، والمؤدي إلى إيوان المحراب والمطلة على صحن المدرسة من الجهة الجنوبية. وهي عبارة عن مساحة مستطيلة الشكل في وضع أفقي مقسمة بدورها إلى ثلاث مساحات مستطيلة هي الأخرى. فالمساحة الأولى (السفلية) كسيت بالزليج، والثانية بالجص، والثالثة بالخشب (صورة-1-).

أ - المساحة الأولى: هي المساحة المكسوة بطبقة من الزليج الملون، احتوت هذه الألوان على العديد من علاقات التباين والانسجام فيما بينها، حيث نجد الأسود والأبيض والبني بتدرجاته (الفاتح والغامق) والأحمر الآجوري، والأخضر الفاتح والغامق والأزرق السماوي، ونرى بأن الواجهة قد زينت بنوعين من الأطباق النجمية متفاوتة فيما بينها من حيث الحجم .

تتكون الوزرة الأولى من نجمة ثمانية الرؤوس ذات لون أزرق سماوي، تحيطها نجمة ثمانية الرؤوس بيضاء اللون تتفرع منها كندات بلون أسود، تحيطها نجمات غير مكتملة بالبني الغامق، كل نجمة تقابل الأخرى من الخلف، ويتمركز مضلع سداسي بالأخضر الفتح بين هذه النجمات لتجد أطراف بمجموعة من الكندات تتراوح ألوانها بين الأحمر الآجوري والبني لتشكل بهذا ثمانية رؤوس، وتحدد بعدها بمضلعات سداسية ونجمات ثمانية الرؤوس سوداء اللون. ويدور حول هذه الأخيرة مجموعة من الكندات باللون الأزرق الفاتح.

نأتي إلى النوع الثاني من الوزرات وهي الصغيرة الحجم حيث تحتوي على نجمة ثمانية الرؤوس، تتراوح ألوانها من وزرة لأخرى بين الأخضر الفاتح والبني، تكتنفها نجمة بيضاء اللون تحيطها كندات بلون بني غامق تتفرع منها كندات بيضاء ثم بكندات بالأزرق السماوي والأحمر الآجوري في الوزرات الأخرى، ويحيط بالوزرة ككل نجمات ثمانية الرؤوس تتناوب فيما بينها وبين المضلعات السداسية باللون الأسود.

يعلو هذه الزخرفة شريط من المستطيلات الخضراء تراوحت بين الفاتح والغامق يليه شريط كتابي يحتوي على كتابات كالدعاء والصلاة على خير المرسلين سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم والإشادة بمشيد المدرسة نفذت بالخط النسخي المغربي بالأسود على أرضية بنية اللون، تنتهي حروفها بزخارف نباتية تمثلت في مراوح نخيلية وأزهار وبراعم حيث تتكون من رأسين في كل جهة يعلوهما رأس على هيئة قبة يتحرك فوقها شريط من الشرافات المسننة متباينة بين اللونين الأبيض والأسود .

ب - المساحة الثانية: نفذت بالجص، يتوسط الواجهة العقد الرئيسي وهو عقد نصف دائري تزين أركانه حشوة من التوريق العربي بالحفر الغائر، وفي كل ركن من أركانه جامة على هيئة محارة بارزة عن السطح. ويحيط بكل هذا إطار من أشرطة دونت بها كتابات قرآنية من الخط النسخي، وينتهي كل شريط بمربع تتوسطه جامة دائرية تحتوي على زخارف نباتية تتمثل في أوراق وأغصان وزهرة ذات ثمانية بتلات. ويتوج هذا عقد آخر نصف دائري يحتوي على بائكة من أربعة نوافذ مخرمة بتخريمات نباتية تتمثل في زهرة عباد الشمس، يعلوها شكل على هيئة مثلث زين بعناصر زخرفية نباتية محورة . وعند منبت العقد ومن الجانبين نجد مربعين زينا بجامتين دائريتين مفصصتين تحتويان على زخارف هندسية ونباتية محورة متشابكة فيما بينها يتوسطها اسم الجلالة "الله"، والجامة الأخرى يكتنفها مربع به نجمة ثمانية الرؤوس تنبثق منها أشكال على هيئة براعم ودوائر متداخلة فيما بينها .

وتتوضع على جانبي العقد نافذتين صماوتين ذات عقد نصف دائري مفصص زخرفت بزخارف نباتية محورة ومتشابكة تمثلت في مراوح نخيلية بسيطة ومزدوجة. وتعلو هذه النوافذ زخرفة من الجامات على هيئة معينات تحتوي على زخارف نباتية كالأوراق، السيقان والبراعم.

ويصعد على الجانبين دعامتان مستطيلتان مفرغتان يعلوهما مستطيل به زخرفة كتابية من الخط الكوفي المعماري دون بها لفظ الجلالة "الله"، لتتوج الدعامتان بكتف

يحمل العقد الخشبي حيث زين بزخارف من التوريق العربي.

ويظهر على كل جانب من جانبي الواجهة إطارين في وضع عمودي يحتوي كل منهما على نافذة صماء معقودة بعقد نصف دائري مفصص تندرج تحتها مجموعة من المقرنصات المتراجعة إلى الخلف مشكلة حيزا يشبه المثلث. زخرفت النوافذ بزخارف من التوريق العربي، وتعلوها إطارات تحتوي على جامات في هيئة معينات زينت بزخارف نباتية تمثلت في كيزان الصنوبر نفذت بطريقة الحفر الغائر يتوسطها لفظ الجلالة "الله" بالخط الكوفي (شكل -3-، صورة -2-).

تتحرك على طول هذه الإطارات أشرطة من الزخارف الكتابية لآيات قرآنية تمثلت في سورة الإخلاص بالخط النسخي المغربي على أرضية من الزخارف النباتية تنتهي حروفها بسيقان وأوراق ملتوية .

نجد بين كل إطار من الإطارين شريطا من الزخارف النباتية نقشت عليه نوافذ صغيرة يعلوها عقد مفصص، يتوجه برعم فوقه شمعة ويفصل بين الواجهة الفسيفسائية والجصية شريط من الجص يحتوي على زخارف كتابية تضمنت آية الكرسي نفذت بالخط النسخي المغربي، اعتمدت نهايات حروفها على أوراق وسيقان ملتوية ومراوح نخيلية بسيطة ومزدوجة وبراعم على طريقة الحفر البارز. (صورة -4-)

يوجد على يمين الواجهة ويسارها بابان يفضيان إلى قاعة الصلاة، وهو مستطيل الشكل ذو عقد نصف دائري مفصص وقد زينت كوشتا العقد بزخارف نباتية متشابكة (مراوح نخيلية بسيطة و مزدوجة) وسيقان وبراعم، يعلوه شريط آخر من زخارف التوريق العربي. وتتحرك حول العقد ككل أشرطة من الزخارف الكتابية تمثلت في تكرار عبارة "الملك لله" بالخط الكوفي الهندسي على أرضية من المراوح النخيلية المزدوجة ذات حزوز، لينتهي كل شريط بمربع يحوي نجمة رباعية يتوسطها شكل هندسي على شكل علامة X.

ج - المساحة الثالثة: وهي الواجهة الخشبية نجدها في العقد الخشبي الذي يعلو العقد الرئيسي للواجهة. وهو عقد مفصص نقشت في كل أرجائه كيزان صنوبر بارزة عن السطح ُمشكَّلة على هيئة نصف دائرة تتوسطها زخارف على هيئة محارة حفرت على مادة الخشب (صورة -3-). وعلى جانبي العقد نجد شريطين عرضيين زينا بزخارف هندسية ونباتية. ويتحرك أعلى الواجهة وبطولها شريط من الآيات القرآنية بالخط النسخي المغربي دونت فيه سورة الفتح، ليتوج الواجهة ككل إفريز خشبي نقشت عليها زخارف نباتية وهندسية متنوعة.

2- الجمالية التي أحدثتها الواجهة:

قسمت الواجهة إلى كتل مستطيلة متفاوتة في الحجم وهذا حسب المادة التي استخدمت في تكسية جدرانها وقد حققت الأشرطة الطولية والعرضية والأشكال الهندسية نوعا من الإيقاع الحركي من خلال تنوع أحجامها وأشكالها.

كان الاتجاه الغالب على صياغة الآيات القرآنية وعبارات الإشادة الموظفة مع العناصر النباتية والهندسية هو وضعها داخل أشرطة أفقية أو عمودية لتؤدي وظيفة تقسيم السطح أو تحديد بعض عناصره المعمارية وكذا بغية جذب العين لمختلف عناصر الواجهة.

تنوعت الألوان المستخدمة في الواجهة فتراوحت بين لون الخامة (الجص والخشب) التي طبقت عليها مختلف العناصر الزخرفية والألوان الصناعية المستخدمة في الفسيفساء. كما استخدم الفنان الألوان القوية والجريئة كالأحمر الآجوري والأزرق والأخضر مع استعمال تدرجات كل لون من الغامق إلى الفاتح والذي أوحى بالضوء فأضفى على التصميم جوا من المرح والهدوء. ولجأ الفنان المريني إلى اللون الأبيض

كخط محدد للأشكال الهندسية المختلفة.

تحقق الإيقاع في الواجهة من خلال تكرار العناصر المؤلفة منها كالعقود الصماء التي تزين جانبي الواجهة والأشرطة الزخرفية والمساحات الهندسية. وبالرغم من التماثل الواضح ما بين شطري الواجهة من خلال توزيع عناصرها، جاء إيقاعها متنوعا من خلال الاختلاف بين حجم العقد الرئيسي والعقود الصماء وتنوع أحجام المسطحات الهندسية والكتابية المنفذة بالخط الكوفي الهندسي والمورق وخط النسخ المغربي. كما أن ترديد عناصر زخرفية شتى على مساحات وأرضيات متباينة ولد إحساسا بالحركة في إيقاع الواجهة. أما استخدام النقش البارز والغائر في الزخارف يظهر علاقة الظل والنور الساقط على الأشكال وأرضياتها. وقد حقق الفنان بعدا ثالثا بالواجهة من خلال تنوع مستوياتها بين الخشبية والفسيفسائية والجصية.

3 - وصف واجهة المحراب: (شكل -2-)

تتكون من مساحة مستطيلة الشكل (صورة-5-) في وضع عمودي يتوسطها المحراب الذي يحتوي على عقد حدوي مفصص ومصنج بخمس وعشرين صنجة تكتنفها زخارف متماثلة ومتباينة. زينت أركان العقد بزخارف نباتية على هيئة ثمار الصنوبر ملتصقة ببعضها، يعلوها عنصر على هيئة هلال تحيطه مراوح نخيلية. وتتحرك على محيط العقد أشرطة بالخط الكوفي تحمل البسملة والصلاة على سيدنا محمد آيات قرآنية من قوله تبارك وتعالى[20]: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ* رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ (صورة -6-). ينتهي كل شريط بجامة على هيئة زهرة، وقد نفذت كل هذه الزخارف على أرضية من زخارف التوريق العربي .

يظهر على الجانبين شريط عمودي زخرف في بدايته ونهايته بكتابة بالخط الكوفي المعماري مضمونها "الملك لله". وعلى الجانبين عمودان يعلوهما تاج ينتهي بثمرة الصنوبر بارزة عن سطح الزخرفة، لتنبثق منها مروحة نخيلية تنتهي بلولب. نفذت هذه الزخرفة على أرضية من المراوح النخيلية المزدوجة ذات حزوز. وزين باقي الشريط بنفس الزخرفة مع انعدام عبارة "الملك لله" (صورة -7-).

تكتنف هذا الشريط بائكة من أربع نوافذ جصية مخرمة. زينت البائكتان الجانبيتان بزخارف من زهرة عباد الشمس والبائكتان الوسطيتان بزخارف هندسية. يظهر على جانبي هذا المستطيل الذي يزين العقد إطاران عموديان يحتويان على شبكة من المعينات المفصصة مزينة بزخارف مخرمة من المراوح النخيلية والثمار والخطوط المتشابكة.

تنتهي الواجهة من فوق بإطار أفقي من إحدى عشرة نافذة تراوحت بين الصماء التي نقشت عليها زخارف من التوريق العربي والمخرمة بخطوط من المعينات المتشابكة. يرتفع من أسفل الواجهة عمودان من الرخام الأبيض يحملان عقد المحراب، يحيط بهما من الجانبين إطاران في وضع أفقي نفذت عليهما زخرفة الكتف والدرج.

4- الجمالية التي أحدثتها الواجهة:

استخدم الجص وحده في كتلة الواجهة التي نفذت عليها الزخارف فجاءت موحدة وطبقت عليها تقنية الصب بالقالب لتخرج العناصر الزخرفية وكأنها نقشت باليد. وتحقق توازن الواجهة من خلال الأشرطة الزخرفية التي أنتجت فيما بينها أشكالا هندسية.

تحقق الإيقاع في الواجهة من خلال التكرار في العناصر المؤلفة منها كالأشرطة

الزخرفية والمساحات الهندسية والجامات. ورغم التماثل الموجود بين شطري الواجهة من خلال نظم توزيع عناصرها التشكيلية، إلا أن الإيقاع كان متنوعا بفضل أحجام المساحات الهندسية المتباينة واستخدام الكثير من أنواع الخطوط في الكتابات كالكوفي المعماري والكوفي المورق، وقد ولد كل هذا إحساسا بالحركة في أرجاء الواجهة.

ظهر البعد الثالث في الواجهة من خلال تنوع مستويات الزخارف المنفذة على السطح حيث استخدم النقش البارز والغائر والمائل وكلها أدت إلى التمايز في مستويات السطح من خلال الظل الناتج عن الظل والنور الساقط على الأشكال وأرضياتها. إضافة إلى الإيحاء بالعمق الإيهامي على الواجهة من خلال اختلاف أحجام الخطوط العربية المنفذة عليها.

الخاتمة:

اتضحت لنا من خلال دراسة جمالية واجهات مدرسة ابن يوسف بعض الملاحظات العلمية الجديرة بالتسجيل هنا وهي حسب أهميتها:

1- من ناحية التخطيط:

- يقوم التخطيط المعماري للمدرسة المرينية عامة ومدرسة ابن يوسف خاصة بانفتاح الحجرات والغرف على الفناء المكشوف، حيث اقتبس نظامه من التخطيط المعماري للأربطة مثل رباط سوس و المنستير.
- أنشأت المدرسة على التخطيط ذي الإيوان الواحد تبعا للمذهب الواحد وهو المذهب المالكي الذي اتبع في المغرب الإسلامي.
- جاء تخطيطها على صحن مكشوف تحيطه أربعة أروقة معقودة تُشرِف عليه وتفتح في الجهتين الشرقية والغربية بحجرات إقامة الطلبة، ويتصدر بالجهة الجنوبية قاعة الصلاة تقابلها في الجهة الشمالية كتلة الدخول، إضافة إلى الطابق العلوي الذي له نفس تخطيط الطابق الأرضي.

2- من الناحية الفنية:

- تلخصت الخصائص الفنية العامة فيما يلي:

- تنوعت المواد الزخرفية المنفذة على مختلف أسطح الواجهات وتراوحت بين الجص و الزليج والخشب والرخام.
- زُينت الواجهات بمختلف الموضوعات الزخرفية من زخارف هندسية ونباتية وكتابية والتي طبقت على مختلف المواد والأسطح، وبمختلف التقنيات كالزخرفة بالقالب على الجص وأسلوب التلوين على الزليج والحفر على الخشب .
- نُفِّذَتْ مختلف العناصر الزخرفية في شكل إطارات، وشرائط وجامات وخراطيش ودوائر ... إلخ.

- ومن ناحية الخصائص التي تميزت بها الموضوعات الزخرفية كما يلي:

- اختار الفنان المريني الأوراق لملء الفراغات بين الحروف القائمة والمستلقية ولإحداث التقابل والتماثل الذي يعتبر من المميزات الهامة للزخرفة في الواجهات.
- لَعِبَتْ العناصر الهندسية دورا هاما في زخرفة الواجهات المدرسية، تَمَثَّلَتْ في الأطباق النجمية التي تراوحت بين إثنا عشر وستة عشر رأسا لاسيما المنفذة على الزليج، وقد خضعت لحسابات هندسية دقيقة. فضلا عن العناصر الأخرى كالمعينات المفصصة أو المركبة في هيئة شبكات في معظم الأحيان.
- حَظِيَ الخط العربي بنسبة كبيرة في زخرفة واجهة المحراب وجاء في شكل شرائط وخراطيش حول العقد.

- تبين لنا أن الزخرفة المرينية تتميز بخصائص جمالية وهي كالآتي:

- جاءت جمالية الواجهات من خلال الوحدة، التنوع، الإيقاع، الاتزان و التوافقات اللونية، بالإضافة إلى التناسبات الجميلة فيما بين العناصر حيث تُدْرَكُ كل العناصر

عند مشاهدة إحدى هذه الواجهات. فنجد أن الفنان المسلم اختار شكلا موحدا سواء في العناصر المعمارية أو الزخرفية، لكنه نَوَّع في مقاسات كل منها عند التكرار لتحاشي الملل والرتابة في الشكل الإجمالي للواجهة، مما حقق تنوعا في الحجوم والأماكن ووحدة في عناصر الشكل بنفس الوقت.

- طَبَّقَ الفنان المريني نُظُمَ الإيقاع من خلال مجموعة العقود التي تتحرك في الواجهة حيث تم تنظيمها وتوزيعها في نظام متدرج في الحجم، إضافة إلى توزيعها أفقيا مع الاختلاف في حجوم تلك العقود على الواجهة نفسها. ونرى أيضا تَحَقُّقَ الإيقاع في زخرفة التوريق العربي من خلال التنوع في شكل وحجم المراوح النخيلية، إضافة إلى التعدد في الخطوط وحركاتها وتقاطعها وفق النظام الذي تسلكه في التشكيل.

- حقق الفنان المريني التوازن في الواجهات من خلال نظم توزيع العقود والعناصر المعمارية الزخرفية كالإطارات والأفاريز والأشرطة التي تتحرك عموديا وأفقيا لتوحي بالاستقرار في عين المشاهد.

- اِسْتُعْمِلَ اللون في واجهة المدخل الرئيسي ليؤدي وظيفته الجمالية أساسا، ولتخفيف ثقل المادة المستخدمة في تلك الواجهة، مع المقدرة على تحقيق التوافق والانسجام للألوان على السطح مما أثرى من جماليتها وعناصرها.

- نستنتج في الأخير أنه كان للفنان المريني دور جمالي في زخرفة واجهات المدرسة وفي تقديم أسلوب زخرفي ورثه من فنون سابقيه (المرابطين والموحدين) واستقاه من الأساليب الفنية الأندلسية ليطورها ويطبعها على مختلف الأسطح، فجاءت بطابع فني وجمالي راق وذوق فني بديع.

الملاحق:

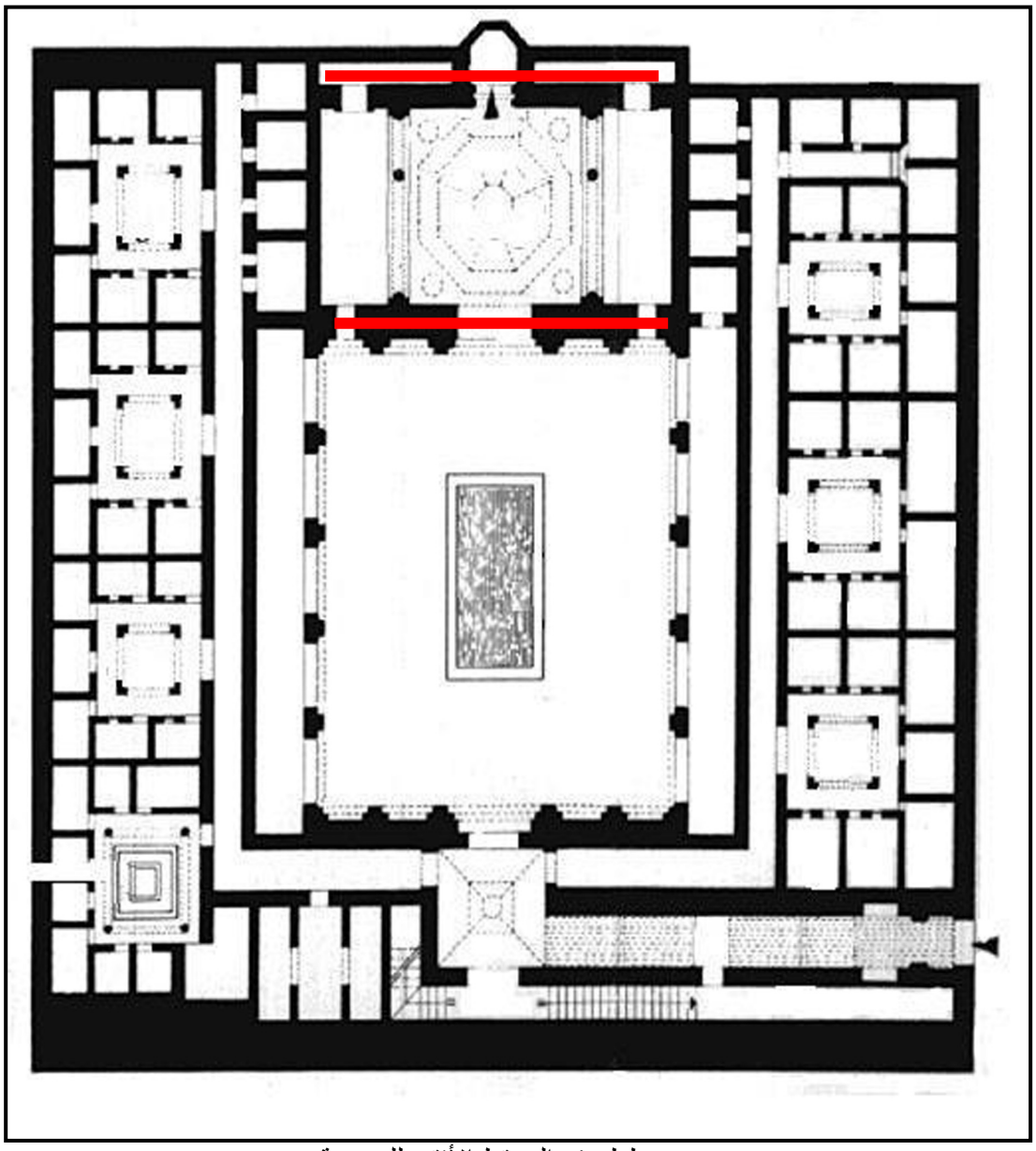

مخطط -1- المسقط الأفقي للمدرسة.

عن: (Terrasse)

موضع الواجهات

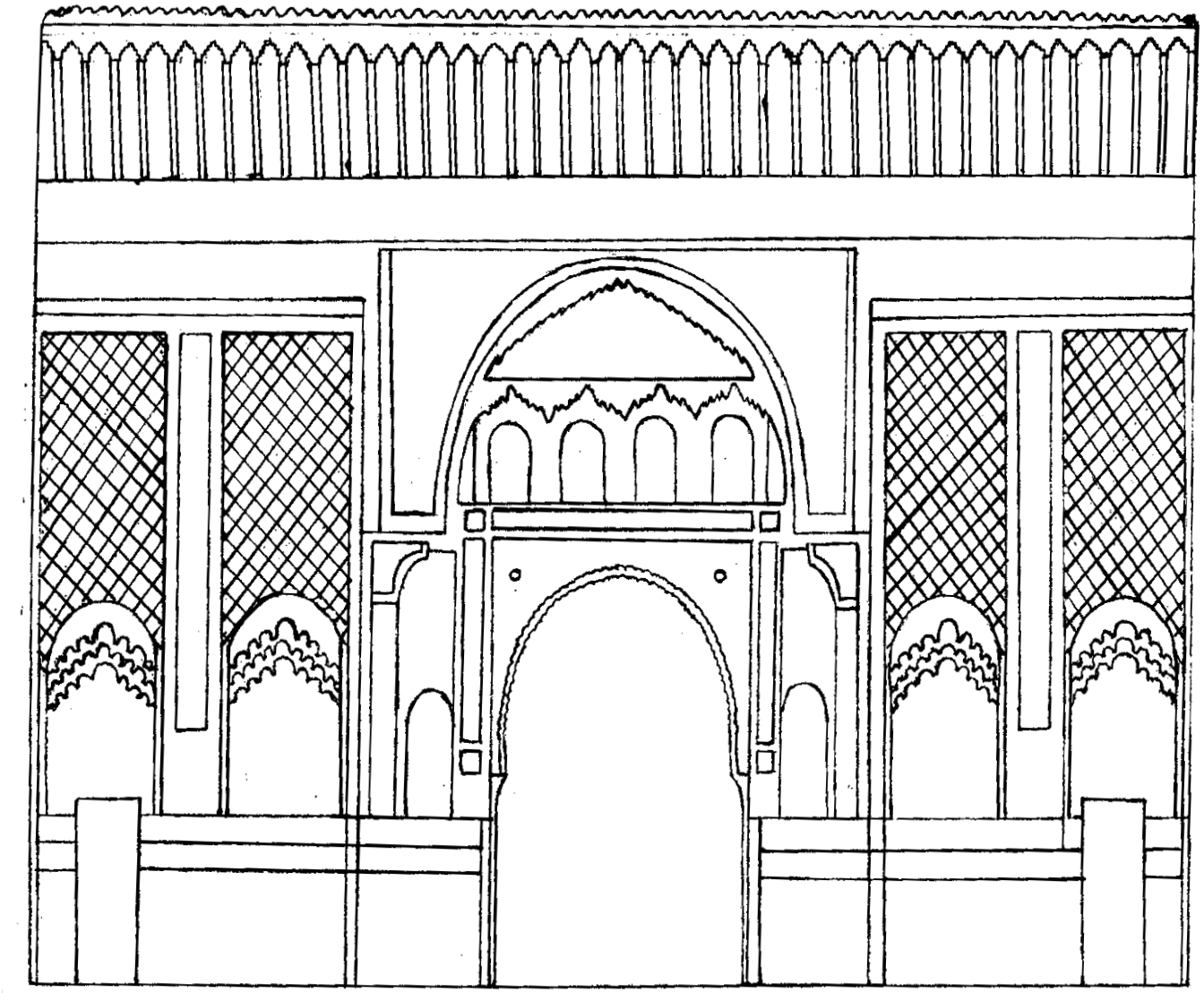

شكل-1- رسم تخطيطي للواجهة الجنوبية للصحن.

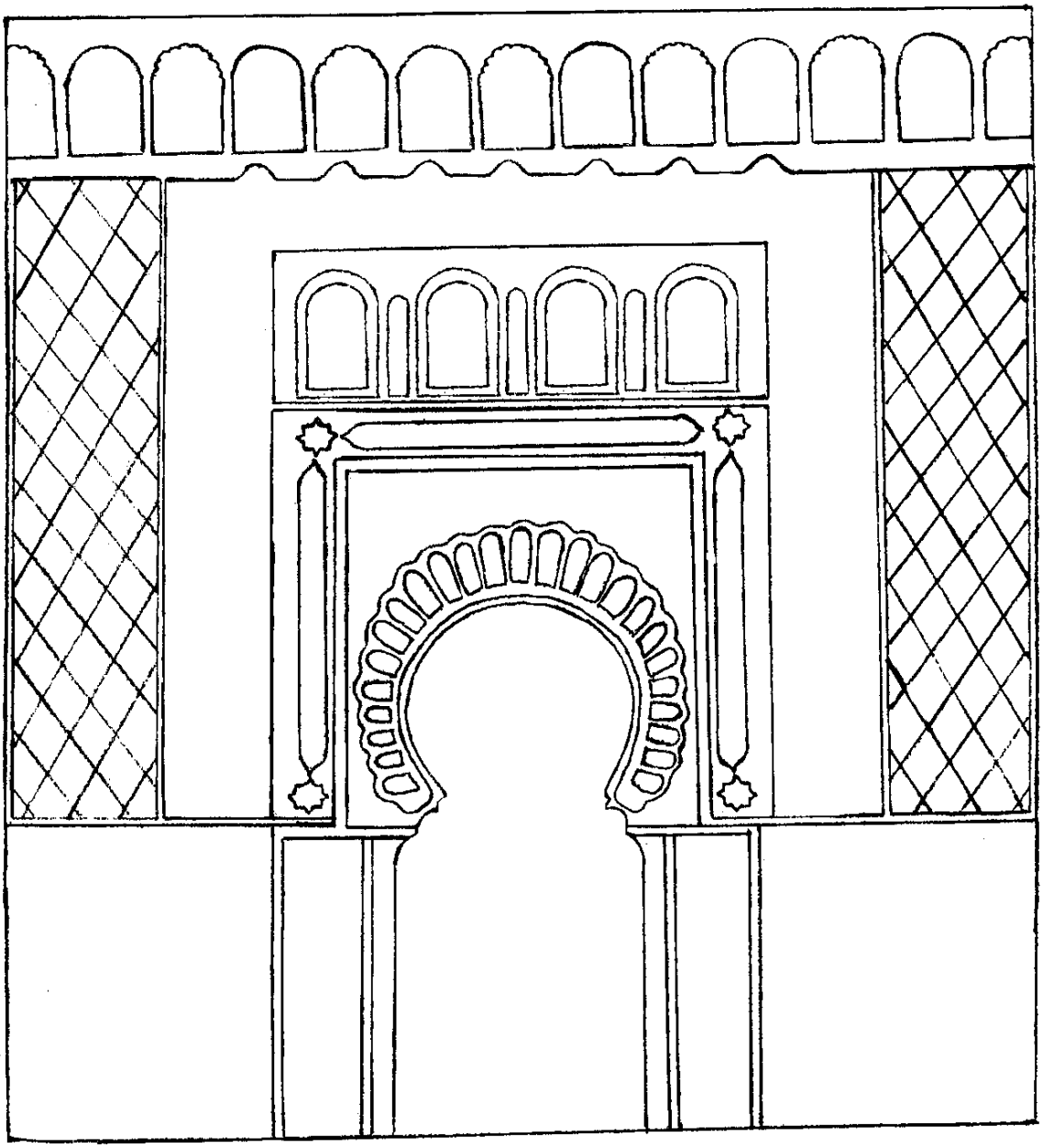

شكل-2- رسم تخطيطي لواجهة المحراب.

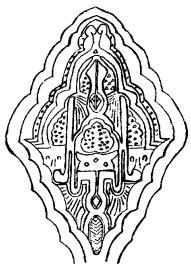

شكل -3- جامة منفذة على الجص.

صورة- 1- أنواع الكسوات التي تزين الواجهة الجنوبية للصحن.

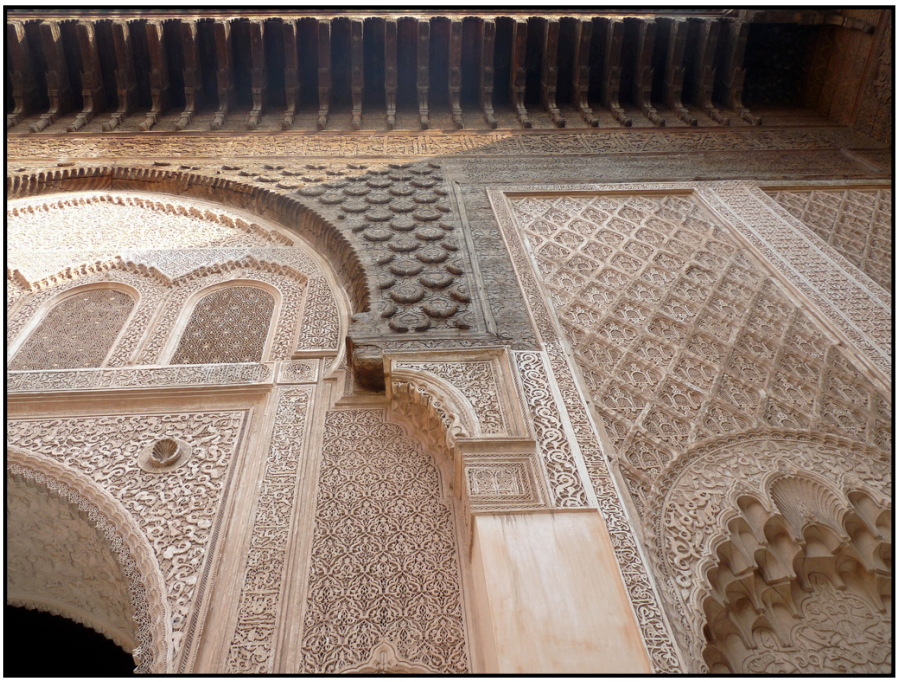

صورة- 2- تفصيل الجانب الأيمن للواجهة.

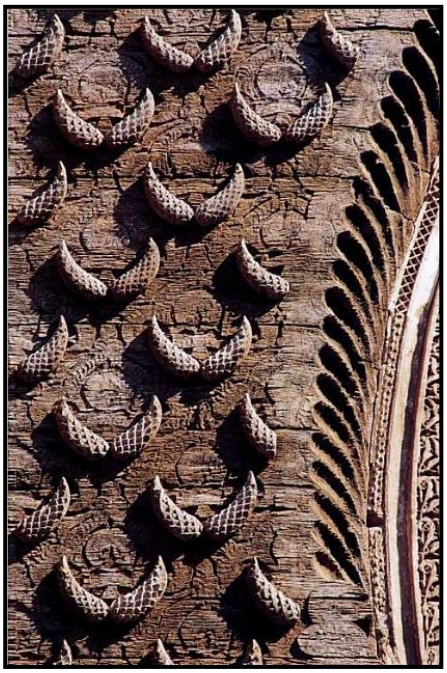

صورة- 3- كيزان الصنوبر المزينة للعقد الخشبي.

صورة- 4- شريط كتابي يعلو الواجهة الفسيفسائية للصحن.

صورة- 5- واجهة المحراب

صورة- 6- زخرفة كتابية بالخط الكوفي المورق تحيط بعقد المحراب.

صورة-7- تفصيل للشريط المحيط بعقد المحراب.

الهوامش:

1- سورة الأعراف، الآية: 169.

2- أحمد الونشريسي، المعيار المعرب والبيان المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب،ج1، الرباط، ط. وزارة الشؤون الدينية ،1981م، ص 365.

3- أحمد فكري، مساجد القاهرة ومدارسها،ج2 ،العصر الأيوبي، مصر، دار المعارف، ص 196.

4- تقي الدين المقريزي، المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بكتاب الخطط،ج3 ، دار التحرير للطبع والنشر ،1967-1968، ص 313.

5 - صلاح الدين الصفدي، كتاب الوافي بالوفايات، ج2، إستانبول 1931- 1954م، ص 344.

6- تقي الدين المقريزي ، مصدر سابق، ص 314.

7- هشام نشابي ، المؤسسات التعليمية في المدينة الإسلامية، اليورسكو، السيكومور، فجر 1983، ص 77.

8- Sourdel(J.th), Locaux d'enseignement et Medersas dans l'Islam, revues d'études, Tome XIX imprimée en France, 1976, p185.

9- Ibid, p 187.

10 - صالح بن قربة ، مدارس تلمسان ودورها في الحياة الفكرية في المغرب الأوسط في العهد الزياني من خلال المصادر والنوازل والآثار، الأبيار، مركز الدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة 1 نوفمبر1954، ص 25.

11- محمد السبتي ، اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار،تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، الرباط، ط2 ،1983م، ص27.

12- محمد عيسى الحريري، تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في عصر بني مرين، الكويت، دار القلم للنشر والتوزيع، 1987، ص 108.

13 - الفرد بل ، الفرق الإسلامية، بيروت لبنان ، دار الغرب الإسلامي ،1981، ص ص 278، 226 .

14- ابن مرزوق، المسند الصحيح ،الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق د:ماريا خيسوس بيغيرا، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981، ص 407.

15- موسى عوني الحاج، المدرسة المصباحية بفاس، ملاحظات حول إشعاعها العلمي ومميزاتها المعمارية المصنفة الفخرية للعالم مصطفى ربيس، تونس، المعهد الوطني للتراث ، دت، ص 2.

16- محمد الكحلاوي ، المدارس المغربية (دراسة أثرية معمارية)، مجلة العصور، المغرب، مجلد 6 ،ج1، 1996ص ص103 – 105.

17- أبو العباس الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق:

جعفر الناصري ومحمد الناصري، ج3 ، المغرب، الدار البيضاء ،دار الكتاب ،1954-1955 ، ص 175.

-18
Deverdum(G), Inscription Arabes de Marrakech, Rabat, edition, Techniques Nord-African1956, p 2.

19- محمد حصيف ، مدرسة ابن يوسف بمراكش ،مجلة المتحف العربي، الكويت، مارس، 1988م ، ص 52.

20- الآيتين: 36-37 من سورة النور.

21- Terrasse (Ch), 1927, Madrasa du Maroc, Paris, Moranée (.S.D).